... والشعب

بقلم : عبد اللطيف اللعبي

عبد اللطيف اللعبي شاعر مغربي يكتب بالفرنسية . ولد بمدينة فاس عام ١٩٤٢ . نال اليسانس في الآداب الفرنسية . صدر له : قصيدة « سلالة » ١٩٦٧ وروايتا « العين والليل » ١٩٦٩ . ونشر بالفرنسية ديوانا عن شعر المقاومة الفلسطينية (اقرأ مقابلة معه في عدد مواقف الاخير ـ ١٥) .

وهذا المقال الذي يتحدث عن الهموم الثورية للثقافة في المغرب ، ظهر في مجلة « انفاس » حزيران ١٩٧١ ، التي انشأها الشاعر اللعبي عام ١٩٦٦ ، وحيث هو رئيس تحريرها الآن .

المنهج الوصفي والمنهج العلمي

اننا اذا اجتنبنا مآزق العلم الوصفي البرجوازي ، وما يليه مما يسمى بـ « الموضوعية الحيادية » و « الواقعية الجدية » نستطيع ان نواجه الموضوع المقترح علينا ، لا كنقاد او باحثين مجردين ، بل كمناضلين في اطار المعركة الفكرية والثقافية الوطنية والعربية ، التي تخوضها كل القوى التقدمية في البلاد .

لانه لا يمكن ان نسمح لانفسنا بالوصف والحياد والتعنيف ، وعرضنا هذا ينطلق من الفكرة الاساسية التالية : ان ساعة الاختيارات الحاسمة قد دقت . وانه لا بد من تعبئة جدية لكل الالتباسات والاستلابات الفكرية والثقافية التي تتخبط فيها مجتمعنا ، وعلى الاخص مثقفونا ورواد الفكر عندنا .

ان كل عمل او منهج في هذا الميدان يخضع حسب رأينا وفي كل الاحوال ، الى التزام واختيار معينين ، والالتزام يتقرر فحواه حسب الامكانات الطبقية والمناهج العلمية ، وطرق التعبير والتبليغ التي يتبناها او يقف بجانبها الملتزمون . فمن جانب العلم الحي ، اي المسيس المرتبط بالممارسة الفعلية ، المميز بالوقوف بجانب الجماهير الشعبية المضطهدة ، انطلاقا من تطلعاتها الثورية ، فان كل التزام لونه الخاص وامكاناته الخاصة . كما ان المناهج العلمية تخضع هي الاخرى الى اختيارات معينة . فالعلم شبه الاقصائي او البرجوازي مثلا ، هو ايديولوجي في عمقه ، كما ان العلم الاشتراكي ايديولوجي كذلك . ليس اذن هناك تزيه كما يعتقد . وليس هناك ايضا مجرد خلاف كما يعتقد ما بين مفهومين للحقيقة والاخلاق . بل هناك فاصل قاطع ما بين الالتزامين متضادان تماما ، وفي حالة معركة مصيرية .

لهذا سنبدأ بوضع بعض الاسئلة ، وانطلاقا منها ، سنحدد الاطار الذي اخترناه لتحليلنا . ونشير كذلك الى المزالق التي نرفض زج انفسنا فيها على اساس انها لا تهمنا ولا نستطيع ان نكون الا موضوعات اشتالية لمستهلكي الثقافة البرجوازية ومختصيها الناشئين . ونحن نؤكد على هذا الموقف من الناحية المنهجية لكي يظهر جليا اننا نرفض الدخول في ابة منافسة لا تعني مباشرة ، ولا تضع كأرضية ثابتة قضايا وتطلعات جماهيرنا الكادحة . هذا هو التزامنا الصريح وعلى اساسه نبني منهجنا العلمي .

ما هي التيارات الجديدة ؟

هل هي التيارات التي تحتم وجودها علينا الصحافة والكتب المعروفة ، واجهزة الاعلام المختلفة ، والتي يهتف بها كثير من المثقفين عندنا ، اكانت ثقافتهم عربية ام غربية ؟ ان نظرة خاطفة على ما كتب في الصحف والمجلات خلال بضع السنوات الماضية لتبين بوضوح ان هذه التيارات ، في نظر معظم مثقفينا هي التيارات المحصورة في حلقة الثقافة والفكر الغربيين بما فيهما من « موضات » فلسفية وادبية وفنية .. الخ ، ولا تلبث هذه الموردات ان تصبح تيارا للتجديد والمقارنة ما بين الجديد والقديم الرجعي والطليعي . وقد يحصل هذا الاستيراد مباشرة ، ولكنه يأتي ايضا على يد مثقفي الشرق العربي الذي يخضع بعضهم هم الاخرون لنفس الاستلابات . واننا لم نضع هذا التساؤل عفوا ، ولم نتطرق لموضوع هؤلاء المثقفين صدفة . لقد طرحنا ذلك وعيا منا ، بان هذا التحريف يشكل ظاهرة اساسية ولن نستطيع ان نحقق اي تغيير جدي ، ما دامت هذه الافكار مهيمنة ولم نستطع ان نتساءلها من واقع ثقافتنا وفكرنا .

وهذه الظاهرة ناتجة عن مسلكين اثنين . اولهما وهو منتشر عند المثقفين ذوي التكوين الفرنسي ، يكمن في الاعتقاد ان « التخلف » طامة شاملة ، وان التخلف الفكري والثقافي واقع آلي في المجتمعات المتخلفة اقتصاديا .

يكمن كذلك في الاعتقاد بان المجتمعات الغربية بتقدمها التكنولوجي والعلمي ، تبلور حتما ثقافة وفكرا في مستوى اعلى وارقى من مستوى ثقافات « العالم الثالث » . لن نتعامل في الرد على هذه المعتقدات ، ومن جملتها خرافة التخلف في مجتمعنا ، فالتحليل الذي سيأتي سيبين مدى لا جدية هذا المنطق .

ومن مثل هذه التخمينات ينطلق هؤلاء المثقفون الى قرارات اخطر ، فيقفون اتجاه ثقافتهم موقف الاحتقار والسخرية ، ثم يصبحون مستهلكين للثقافة الاجنبية ، يبقافين ، ويفقدون كل مبادرة فكرية خلاقة . ثانيهما وهو منتشر عند المثقفين ذوي التكوين العربي ناتج عن مركب نقص يدفع بهم الى نفخ غير انتقائي وساذج شيئا ما على الثقافة الغربية ، وهذا النفخ يصبح في بعض الاحيان نوعا من الترف الفكري، واداة من اجل الترفية الفكرية . فنرى على سبيل المثال كثيرا من كتابنا الشباب الذين يجدون طمأنينة وعزة في نسبة ما يكتبون لطريقة روب غرييه او بيكت او غيرهما ، وهذا يمثل بالنسبة اليهم وسيلة للالتحاق بركب الطليعة التجريبية . وسنتناول بالنقد في تحليلنا هذا الجانب كذلك .

ما هو الجديد وبالنسبة لمن ؟

اذا انطلقنا من موقف الطبقات المستغلة (بفتح الغين) فنحن ملزمون بالاجابة على هذا السؤال قائلين : ان كل الموضات الفكرية في الغرب والشرق التي يهتف بها جل مثقفينا لا تعنينا قطعا لانها لا تستجيب لحاجياتنا . ولا تعبر من اي جانب كان عن تطلعاتنا للتجديد والتحرر واجهاض واقع الاستلال. انها تيارات موسومة من الناحية الايديولوجية والطبقية ، ولا غرابة اذا وجدناها موضوع البحث والنقاش والاعجاب في بعض الصحف وفي الجامعة وفي حلقات المثقفين المحترفين . ولا غرابة اذا سمعنا نوهات هذه الاوساط عن عزلتها وعن الهوة الموجودة بينها وبين الجماهير ، وعدم تفهم الجماهير لافكارها وتجاربها ، وغربتها . فلا يعني الجماهير بطبيعة الحال سام هذه الاوساط ، ولا ضياعها وتمزقها وشعورها بالحرمان وعدم التكامل ، آو فشلها في الميدان الجنسي وازمانها النفسية ، الى غيرها من الموضوعات المألوفة . لا بهم كذلك هذه الطبقات المستغلة ان تكون هنالك علوم متعددة الاسماء ، وتقنيات وميثولوجيات جديدة ومدهشة ، اذا لم يكن هدفها الحقيقي تمكينها من تحريك اكثر فعالية لعجلة التاريخ وتحطيم الهياكل التي تقيمها ماديا ومعنويا . وبهذا الصدد ، اتذكر مناقشة دارت مع استاذ مغربي سيسيولوجي بعد محاضرة له عن « السيسيولوجيا والعالم الثالث » ، حيث قال : ان شعوب العالم الثالث والعربي ليست لحد الآن في مستوى السيسيولوجيا ولا تستحق هذا العلم ، فاجبناه انذاك : ان هذه الشعوب هي على كل حال في استغناء تام عن علمك المزعوم ، لانها لا تنتظر تصنيفا او وصفا لحالتها ولكنها تنتظر الفكر الذي يمكنها من تغيير واقعها بنفسها .

خلاصة لمضامين التجديد الثقافي والتحرر الفكري

ان التيارات الجديدة التي ظهرت خلال السنوات العشرين الماضية ، والتي تمثل بالنسبة قفزة حاسمة في ميادين التغيير والتفكير والتحرر تتبلور ، اذا اردنا التلخيص والتسهيل حول الاعمدة الاساسية التالية :

١ ـ نعرية الهيكل الاستعماري واستراتيجيته في الميدان الثقافي والفكري ، وتبيين اساسه العنصري .

٢ ـ نقد فكرة الثقافة الشمولية وفكرة الحوار المزعوم ما بين الثقافات والتاكيد على حقيقة الثقافة الوطنية .

٣ ـ التاكيد على الطبيعة الطبقية لكل تيار ثقافي او فكري .

٤ ـ التاكيد على ان التغيير الثقافي والفكري الحقيقيين ، متوقفان على تحرر قدرات الجماهير الخلاقة ، وبالتالي دحض كل نظرية نخبوية وكل محاولة وصاية ، او استحضار اتجاه علمية زيف كل محاولة تهدف ، في الوضع الاستعماري ، الى نوع من الزواج الثقافي والازدواجية ، مبينين ان السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي كانت تشكل العمود الفقري لسياسة الاستغلال الاقتصادي واستغلال الطاقة البشرية المحركة . وانها ولبدة تفكير عنصري مبني قبل كل شيء ، على احتقار ونفي تامين للثقافات الافريقية . فلم يكن من الممكن بتاتا ان تكون هناك زواج في وضع الاجهاض والتدمير لكل المقومات الفكرية والثقافية الافريقية .

وكان فانون في محاضرة القاها عام ١٩٥٦ بمناسبة اول مؤتمر للكتاب السود في باريس ، حلل بتدقيق هذا الاساس العنصري للوضع الاستعماري ، حيث قال : ان العنصرية تظهر في عملية تبسيط الاخر . فمن جهة يقرر المستعمر (بكسر العين) ان هناك ثقافة (اي الثقافة الغربية) لها طابع الدينامية والازدهار والعمق ، وثقافة في تحرك وتجدد مستمرين . ومن جهة اخرى يجد في الثقافات المستعمرة (بفتح العين) ظواهر فقط ، اعجوبات ، اشياء ، لا بنيات . ومن هنا ، تنطلق الايديولوجية الاستعمارية الى تعرية الثقافة الغربية والفكر الغربي كحل لحالة الهجينة وفطرية » الشعوب المستعمرة . وهذا الغرض يكون في رايها عملية انقاذ انسانية وعملية تعرية فكرية وحضارية للمستعمرين . وتهدم الايديولوجية الاستعمارية من اجل ذلك ، لا سيما للنخب الافريقية التي تكونها المدرسة الاستعمارية عددا من القيم الشمولية الانسانية (القيم الغربية) كقيم ثابتة وناجعة ، لها قدسية ، وذلك لكي تتيقن تلك النخب من ان الثقافة الغربية هي الوسيلة الوحيدة للخروج من الهجية عصر ما قبل الاستعمار ، وللالتحاق بركب الحضارة الشمولية .

ولقد تصدى المثقفون الافارقة الى هذا المنطق بتعريته انطلاقاته الاستراتيجية ، ولتبيين علاقاته بواقع الاستعمار الملموس . فبينوا ان الهجمة الثقافية في الميدان الثقافي هي الواقع الاستعماري نفسه ، فلا يمكن لاية ثقافة ان تتبلور وتساهم في تكوين الثقافة الشمولية المقبلة اذا كانت في حالة تشويه وتعسف ، والا اذا انطلقت من معطيات وقيم خصوصية ، اي التاريخ والانسان والثقافة والارض الافريقية .

اما فيما يتعلق بمركلة الاستغلالات فقد ركز هؤلاء المثقفون تحاليلهم الايديولوجي على معطيات لها ارتباط منطقي بالمرحلة السابقة، وتكون اليوم في عظم الدول المستعمرة فيما قبل ظاهرات ثورة . فبينوا ان المعركة الفكرية لا تنتهي باثناء الوضع الاستعماري المباشر ، وبمجرد تسليم السلطات ورفع الاعلام الوطنية ، فان الاستعمار الذي يخرج من الباب الكبير ، يدخل من النافذة ، فيتزيا بانفعة مكثفة ، ويكون نظامات جديدة مثل التعاون الثقافي والحوار الضروري ما بين الثقافات .. الخ .. ليستعيد سيطرته القديمة ، وليستغل الشعوب الافريقية المستعمرة عليها فكريا وثقافيا ، باسم الصداقة والمشاريع التنمية والمساعدة والفتح على المعرفة والتجارب الاخرى . وفي هذه المرحلة ، تتكون امتيازات خطيرة عند رجال الثقافة الذين يفقدون كل علاقة وكل روح نضالية ، وذلك ناتج بطبيعة الحال عن عدم وعي عميق باسس ظاهرة الاستعمار والمراسيحة الاستعمار الجديد .

ولدى المناضلون الافارقة انه اذا كان ليس من الممكن في عهد الاستعمار اي حوار او ازدواج ما بين الثقافة الاستعمارية والثقافة المستعمرة ، ففي عهد الاستقلالات ايضا . هذا الحوار او الازدواج ليس ممكنا ولن يتم (اذا ما كانت تجارب في هذا الاتجاه) الا بعرقلة الثقافات الوطنية وتهميشها في اطار الثقافة الغربية البرجوازية . فالثقافات ليست مستعدة في الاوضاع الراهنة ، لاي حوار مع الثقافة الامبريالية المهيمنة ، ل.س.ن. المسطور في تشكل ثقافة افريقية ـ لاتينية ، مثل « ان الثورة ـ كما يقول ماريو دي اندراد ، احد قادة الحركة الشعبية لتحرير انغولا ـ هي العمل الشعري الاسمى » . معنى ذلك ان الثورة هي في حد ذاتها طاقة تغيير شاملة . فكما حاولت الامبريالية آن تنفي وتعطب ثقافات الشعوب المستغلة فان الثورة تلحق عطبا جسيما بالجهاز الامبريالي مهشمة بذلك جميع اركانه . وانها تفجر في نفس الوقت الطاقات الخلاقة لدى الشعوب (الفنية ـ العسكرية ـ الثقافية) . ففي اطار الكفاح الجماهيري والكفاح المسلح تكون شيئا فشيئا الثقافة الجديدة ويظهر الانسان الجديد .

ان العنف الثوري هو الذي يحل مشكلة الثقافة، اكان هذا العنف يتجسد في الصراع الطبقي او في حركة التحرر الديمقراطية والشعبية . وحلم المثقفين البرجوازيين بخلق ثقافة جديدة خارج الصراع الطبقي والكفاح التحرري يدل في العمق على خوفهم من الجماهير ومن النضال . فحربه التعبير التي يطالبون بها والثورة الثقافية التي يتشدقون بها ما هي الا مظاهر من طموحهم الى تسلق الدرجات الاجتماعية .

فالثورة الثقافية الديمقراطية والشعبية التي تكون الان في جميع البلدان التي تخوض فيها الشعوب نضالات عنيفة ضد الامبريالية والانظمة الاستعمارية الجديدة والفاشستية الجديدة ، تعبر عن وعي الجماهير بطاقتها المحركة للتاريخ وبقدرتها على تحويل العالم .

ان الثقافة الثورية الجديدة في انغولا وفلسطين وامركا (الاحياء الشعبية التي يسكنها الافارقة العالم قد تقتحم اليوم قلعات الامبريالية في الامريكيون) وغيرها تشكل حسب التعبير الذي كان اعطاه لينين دوليا وعجلة من ميكانيك الثورة العا . انها تكون عنصرا هاما من قضية الثورة .

ان المناضل او الفدائي الذي يحمل البندقية اليوم ، يعلم جيدا انه يقاتل من اجل الثقافة كذلك. فالكفاح التحرري الذي يهدف الى القضاء على استغلال الانسان للانسان ، وتمكين الجماهير الكادحة من وسائل الانتاج والسلطة السياسية يهدف في نفس الوقت الى تكوين الانسان الجديد ، المتمتع بجميع قدراته العقلانية منها والحسية . وهذا يدل في نهاية التحليل على الارتباط الجدلي بين الثورة السياسية والثورة الثقافية وبشير الى ان التغيير في الميدان الثقافي لا يمكن ان يتم الا بممارسة التغيير السياسي .

الثورة الثقافية البروليتارية الصينية

نتطرق الان الى التيار الثالث الذي يهم في الواقع تجارب عديدة ، لكننا سنركز التحليل على مثال الثورة الثقافية البروليتارية الصينية .

وقبل ذلك لا بد ان نلاحظ ان الصحافيين المحترفين عندنا ، ومثقفينا الذين يخصصون صفحات عديدة للحديث عن « جائزة نوبل » او غير هذه المواضيع لم يشيروا قط لهذه التجربة الكبيرة التي بدات الان تطور فكر وثقافة مئات الملايين من البشر .

ولقد انطلقت الثورة الثقافية منذ سنة ١٩٦٦ وكان هدفها حسب قول القادة الصينيين :

ـ ممارسة ديكتاتورية البروليتاريا الشاملة في البناء الفوقي بما فيه جميع مجالات الثقافة .

ـ استئناف الصراع الطبقي والصراع الايديولوجي بحدة جديدة .

ـ نقد والاطاحة بمختلف الثقافة والايديولوجية البرجوازية .

ـ انتزاع الثقافة من ايدي البيروقراطية والبرجوازية .

ـ خلق ثقافة ثورية من ولاجل وتحت قيادة العمال والفلاحين والجنود . وقد انطلقت هذه الثورة بعد ان اخذ القادة الصينيون يسلطون النقد اللاذع على بعض الدوائر والانتاجات الادبية والمسرحية ، وكذلك على وزارة الثقافة التي وصفها ماوتسي تونغ بانها « اذا ما بقيت على حالها بدون تغيير ، يجب تغيير اسمها الى وزارة الاباطرة والملوك والجنرالات والوزراء ، او وزارة النوابغ المدللين والحسناوات ، او وزارة الموتى الاجانب » ودعا القادة الصينيون الى تعبئة جماهيرية والى تفجير الطاقات الخلاقة والتعبيرية لكل الجماهير الشعبية . وكان من بين الشعارات المطروحة : النقد العلني ، التعبير الحر والجماعي ، جراة الكلم ، جراة التفكير ، جراة الخلق ، وفضح كل محاولة تهدف الى قمع الجماهير فكريا .

وعلى هذا الخط اندلعت الثورة الثقافية الصينية، فانتشرت في كل انحاء البلاد الملصقات الحائطية التي اخذت تعبر عن وجهة نظر الجماهير وعن قدرتها الخلاقة ، والتي فضحت كذلك محاولات الرجعية والبيروقراطية من اجل استعادة مكانتها في الميدان الثقافي ، كما حاولت التغلغل في اجهزة الحزب والدولة لاعادة سيطرتها . هكذا يتبين ان الثورة الثقافية كان هدفها الرئيسي هو احباط مخطط البرجوازية الذي كان يهدف الى انتزاع السلطة من الطبقات الثورية ، وبالتالي تعزيز وتحريك جديد لدكتاتورية البروليتاريا في جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والايديولوجية .

ومنذ ١٩٦٦ الى الآن ، وفي الميدان الادبي مثلا يمكن القول بان الانتاج الشعري يقدر بمئات الملايين من القصائد ، عبر كل واحد فيها عن جرائه في التكلم والتفكر والخلق . كما يدل على ذلك هذا النموذج لعامل صيني :

المنارة

الخط العام منارة مشعة
تضيء لنا جيدا درب تقدمنا
الامس كان ما يزال معتمرا
قبعة المتعلم واليوم
لا قبعة : نشعر عن سواعدنا
وقرب الالات نكتب الاشعار !
والشعراء هم نحن ـ نحن العمال .

وما يمكننا ان نستنتج من هذه التجربة التي عمت ميادين مختلفة ، ولا سيما التعليم ، ان مفهوم الثقافة والمثقف مفهوم نسبي جدا ، وان مشاكل مثل تبسيط الثقافة او النزول عند مستوى الجماهير مشاكل مفتعلة مصطنعة ... فالامر في الواقع لا يتعلق بذلك ، بل يكمن في الاقتناع او عدم الاقتناع بان الثقافة ليست هي التي تنزل من فوق ، بل هي التي تصعد من اعماق الجماهير ، وبان المثقف ليس هو الحاصل على الشهادات ، والمعرفة الجامعية الواسعة ، والمحيط بالنظريات المتعددة بل هو الذي يستطيع الوصل المستمر ما بين النظرية والممارسة العملية ، الذي يجعل من هذه الممارسة ، المعرفة الحقيقية والنظرية العالية .

وقد انتبه رواد الثورة الثقافية الى هذا الجانب ، وكان من جملة التوجيهات ضرورة ما سموه بـ « تربية المثقفين » او اعادة تربيتهم على اساس اهداف الثورة الثقافية البروليتارية.

وباختصار فقد بينت هذه الثورة الامكانيات الجسيمة لطبقات كانت ولا تزال في معظم المجتمعات محرومة من التعبير عن ذاتها بنفسها ، ومن امكانية خلق ثقافتها الخصوصية نظرا للقمع الشامل الذي تسلطها عليها الطبقات الحاكمة ، فكما قال ماو « ان الجماهير هم الابطال الحقيقيون . ان الجماهير الشعبية لها قوة خلاقة لا تحد . آن الشعب والشعب وحده هو